حديقة المقتطف

الحركة الادبية

في سوريا ولبنان

للاستاذ يوسف اسكندر

—

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني

—

مرثيي ظل الغمامة

من قصيدة لكتر

الحركة الأدبية

في سوريا ولبنان

لم تعرف الحركة الأدبية في لبنان وسوريا ، منذ عشرين سنة ، نشاطاً قائماً على عقيدة صحيحة وإيمان راسخ كالنشاط الذي عرفتهُ في السنوات العشر الاخيرة. ففي هذه السنوات العشر انتقل الادب في هذه البلاد من مرحلة اللهو والتردد الى مرحلة الجدّ والعزم ، فلم يبقَ أهليَّة يتفرغ لها الاديب على هامش مشاغل الحياة كما يتفرغُ الصانع او التاجر للهواية الفرد او الشطرنج

على انَّ الانتاجَ مايزال ضعيفاً بالقياس الى قوة اليقظة الاديبة في مجموع الأمَّة لا بالقياس اليه قبل اليوم. فقبل اليوم — ولنحصر كلامنا في هذا الثلث من القرن العشرين — كان القلم لا يشر على الغالب الكثير الا في الصحف والمجلاَّت وقصارى مايطمح اليه القارىء ان يقع في الصحف على مقال أدبي في كلّ اسبوع او قصيدةٌ في كلّ شهر أو شهرين . فبشارة الخوري مثلاً ، هذا الشاعر الذي ملأت شهرتهُ الاقطار العربية ، لم تعرف اليه المطابع حتى الآن ، فقصائده مشتتة هنا وهناك وقد لا يُفلح — اذا استثنى المأثورة منها — في مهر الادب بأكثر من مائة صفحة ، ومهما تكن هذه المائة الصفحة بليغة فلا يصحّ ان تعدَّ انتاجاً في حياة أديب . وما نقوله عن بشاره الخوري نقوله عن شبلي الملاط والمرحومين امين تقي الدين والياس فياض ومعظم الذين حملوا أعلام الحركة الادبية في مطلع هذا القرن. فشبلي الملاَّط لم ينشر الاَّ ثلاث مسرحيَّات او اربع منقولة عن الفرنسية وديوان شعر فيه الغثّ وفيه السمين واذا نحن ضربنا صفحاً عما في ديوان الملاط من شعر المناسبات العارضة ، هذه المناسبات التي كثيراً ماظهرت على اقلام الشعراء العرب في كل عصر فكانت حائلاً دون انطلاق الفكر الاستقلاليّ مع العاطفة الغريزية ، لا يبقى

لنا في هذا الديوان الا بضع قصائد لا يصح ان تعدّ انتاجاً في حياة اديب . ولم ينشر الياس فياض الا بضع مسرحيّات منقولة عن الفرنجة ودواوين صغيراً قد لا يليق فيه بكرامة الشاعر اكثر من اربع قصائد او خمس . اما امين تقي الدين فقد يكون الأديب الوحيد الذي لم يعتمد في تلك الحقبة خصلة غيره في الاغارة على تريكة الغير . على انهُ — لسوء الطالع — لم يخلّف من النثر والشعر ما يملأ كتاباً حسن العرض

ولا نريد بهذا ان نكر فضل هؤلاء الادباء، فقد كانوا فاتحة حسنة لهذا القرن بخروجهم في حلبة الشعر على غفلة القرن التاسع عشر ، وان قصروا في حلبة النثر وفي التوسع الفكري والابداع عن بعض جهابذته كاليازجي والشدياق واديب اسحق . واذا حقّ لنا أن نلومهم فعلى كونهم شهدوا أوجع مأساة عرفها التاريخ ولم نشهد لأقلامهم منظراً موجعاً من هذه المأساة ، اللهمّ إلا بعضَ قطع لا قيمة لها . يمرُّ بنا المنجل الاسود على شفرته المقدّسة كجناح الموت سحن الجوع والمرض والذل والظلم والحقد ولا يقوم فينا شاعر أو ناثر يمس ريشتهُ في هذا البؤس ؟ ألا يقوم فينا شاعر او ناثر اجترّت عيناهُ حصيدَ تلك الشهادة فيطبع على جبين التاريخ الادبي لوحة خالدة مما اطبع على عينيه ؟

كانت الحركة الادبية التي نشطت في جريدة « البرق » عام ١٩٠٨ على يد طائفة من رجال العلم كالشيخ اسكندر العازار وفليكس فارس والخلايلي وداود جماعص وبشاره الخوري وشبلي الملاط وغيرهم مثل النهضة التي حاولت قبل الحرب الكبرى الرجوع عن القديم المألوف ، عن الادب البطريركي والسلطاني الذي تفشى في ذلك الحين . على ان هذه النهضة لم تعطِ أكلها لقرب ما بينها وبين الحرب ، الحرب التي عطّلت الصحف إلا المملوكة منها وغضّت شرف الفكرة الحرّة في البعض الكثير من رجال العلم فاصبح الأدب سلعة تباع على أبواب الحكام بخوراً وقرابين

وبعد أربع سنوات مرّت على السُبات السياسي والادبي في لبنان وسوريا لم نجرؤ الناشئة على النظر الى الماضي لهول المشهد ، ولا الى الحاضر لفراغه الموجع .

فاستسلمت الى الغرب الفاتح المنتذ وراحت تنبّ ماهبٌ ودبٌ من صادراته، مؤمنة بكل مايشحنه حتى بحواشيه . ولشدّ ماتأثرت في ذلك الحين بموجة الأدب المهاجر حامل الروح الشرقية في الجسد الغربي ، واذا هي اصداء مشوهة لذلك الانتاج السماعيّ الخصب . وان يكن الأدب المهاجر قد نفخ في الناشئة اللبنانية والسورية روحاً لاعهد لها بمثله فقد استبدها لفته المضعوفة وسيّرها في طريق متحيّرة بين الفوضى والتقليد

وفيا هذه الناشئة تضطرب بين الغرب والغرب ، بين الاصوات الشرقية المغرّبة في الاميركيتين والشمالية منها بوجه خاص ، وما تشحنهُ اوربّا الفاتحة ، سيدةُ مصائر الناس ، كان حملة الاقلام المخضرمون — اولئك الذين لبسوا الوجهين قبل الدستور العثماني وبعده — يحاولون لباس الوجه الثالث باسم التحرر السياسي

***

ولكن ... فيا هؤلاء منصرفون عن الادب الى استثمار السياسة في العهد الجديد كان بعض المفكرين الأحرار في الشباب يلقون في الناشئة بذرة التحرر الأدبي . كان الاستاذ عمر فاخوري في جريدتي « المعرض » « والبيان » ببيروت والمرحوم احمد شاكر الكرمي في « الزمان » بدمشق يقودان طليعة هذه الحركة التحريرية المباركة

وهذه الحركة لم تفض الى هدفها الاّ في جريدة « المعرض » الاسبوعية فلعشر سنوات الاّ قليلاً تألقت في هذه الجريدة رابطة من أدباء الشباب وراحت تذيع مبادئها الأدبية فتقسط حيناً وتظلم حيناً ، تهدي تارة وتضلّ أخرى ، وبين تطرفها واعتدالها قامت في الشباب نهضة لم يخرج الادب منها لاخاسراً ولا مغبوناً

وكانت جريدة « البرق » مازال سياسية فحوّلها منشئها الاستاذ بشارة الخوري الى جريدة أدبية أسبوعية . على أن الاعصاب الادبية التي ساهمت في تحريرها لم تكن من الصف بحيث تستطيع مجاراة « المعرض » — وكان الشباب في ذلك الحين أميل الى التطرف والفوضى منه الى الاعتدال والنظام — فلم يُقسَط للبرق

في النجاح فوقفت في منتصف الطريق واستغنى صاحبها بشهرته عما وأغنى العالم الادبي بشعره عن صحيفته . واذا حق لنا أن نلومه فعلى انصرافه في الكثير الغالب الى الغنى بما يُحصّل عليه لا بما يندفع اليه . ولا نزاع في أن الاستاذ بشاره الخوري يشرف في احساسه العاطفي الصرف على العالم الذي عاش قبل الحرب والعالم الذي يعيش بعدها ، فهو انتقال حي من عهد الى عهد ، من عهد رزح فيه الادب تحت ثقلين : الضغط السياسي الحديدي والارشادي والضغط الروحي الناشيء عن ضعف اليقين بالنفس ، الى عهد تحاول فيه الناشئة توطيد استقلالها الروحي توطئة لاستقلالها السياسي الصحيح . فهل يستطيع سبيلاً الى تأدية الرسالة الملقاة على عاتقه ؟ فشاعر الأمة يجب أن يكون عظيماً كالأمة

وفي ذلك الحين ، فيما الحركة الأدبية ماضية في نشاطها بجريدة « المعرض » وبعض الصحف اليومية — وسطع صحف بيروت تخص الأدب بصفحة في كل اسبوع — كانت حركة أدبية رصينة تنشط في سوريا ، بمجلة « الحديث » الشهرية في حلب ، وبجريدة « في الحرب » وغيرها في دمشق . وما عنّت هذه الحركة أن أعطت ثمارها فأصدرت المطابع مؤلفاً نفيساً عن المتنبيء للاستاذ شفيق جبري ومؤلفاً آخر عن سيد قريش للاستاذ معروف الارناؤط . وأذكر أن المغفور له شوقي قال لي يوماً إنه سلخ ثلاثة أيام على قراءة « سيد قريش » . والواقع أن هذا الأثر الخالد الذي يضارع بلغته وأنواله ملحمة « الشهداء » لشاتوبريان هو ، على ما في إخراجه الفني من الهنات ، أفضل كتاب أدبي ظهرت به المكتبة العربية في سوريا . ولم يقف جهد معروف الارناؤط عند « سيد قريش » بل تجاوزه الى كتاب آخر قد يقل عنه خطراً هو « عمر بن الخطاب »

وفي تلك الحقبة الطيبة من حياة سوريا الأدبية صدر في بيروت أول جزء من « أدباء العرب » للاستاذ بطرس البستاني ، وتبعه الجزء الثاني فالثالث . وكانت المطابع في الوقت نفسه تصدر كتاب « المراحل » للاستاذ ميخائيل نعيمه و « جبران خليل جبران » للمؤلف نفسه . وقد أحدث هذا المؤلف الأخير ضجة صحفية وخطابية لم يسبق لها مثيل إلا في النادر القليل . ويرجع السبب في هذه

الضجة الى بعض حقائق أوردها الاستاذ نعيمه في كتابه الخالد ويدرس على ضوئها سلوك جبران في حياته الخاصة وعلاقة هذه الأخيرة بحياته الأدبية .

وكان الاستاذ أمين الريحاني قد بدأ منذ سنوات بفلدجيد المكتبة العربية بروائعه ، فبعد الجزء الرابع من الريحانيات « ملوك العرب » وبعد ملوك العرب « النكبات » وبعد النكبات « نجد الجديدة » وبعد نجد الجديدة « قلب العراق » ويعدّ الآن كتاباً عنوانه « قلب لبنان » وأمين الريحاني يقف اليوم على هضبة الانبعاث الفكري موقف نبيّ من أنبياء المجتمع الآتي ، فتى أدبه إيمان بالشباب ، إيمان بالوطن وإيمان بالمستقبل

* * *

في بيروت اليوم جريدتان اسبوعيتان يغلب عليهما الطابع الأدبي هما « الجمهور » و« المكشوف » ولكلٍّ من هاتين الجريدتين أقلام وهدف تلتقي على صعيد الأدب وهما بعدت بينهما شقة السياسة الشخصية التي تخلقها أحوال الأدباء في كل بلد فلا تستطيعان الاساءة الى الغاية التي تسعيان وراءها . وقد يكون هذا البعد باعثاً لاحياء الحركة الأدبية وإضرام اللهب في عروقها . واذا نحن قابلنا بين قوتي الاقلام التي تساهم في هاتين الجريدتين رأيناهما متعادلتين . على أن جريدة « المكشوف » داراً للطباعة ما فتئت منذ سنتين تغذي المكتبة العربية بنتاج مرجوّ الفائدة . ويكفي جريدة « المكشوف » فضلاً أنها أفسحت لكثيرين من الأدباء المغمورين سبيل الظهور وشجعت الادباء الآخرين على العمل فنشطوا الى الانتاج نشاطاً لم يُعرَف مثله قبل اليوم

ولا نريد أن نختم هذه التوطئة للفصول المقبلة في « الحركة الادبية بسوريا ولبنان » قبل أن نأتي على عرض سريع لأبطال هذه الحركة . ففي سوريا طائفة من حملة الاقلام تطمئن الدليل على إدراكها رسالة الادب وخطرها في حياة الأمة بزرعها البذور المرجوّة الثمر ، في تربة ملائمة وجوّ صالح . وقد ذكرنا من هذه الطائفة الاستاذين جبري والارناؤوط . ونذكر الآن الشاعر خليل مردم بك في دمشق ، والشاعر عمر أبو ريشه في حلب ، والشاعر محمد سليمان الأحمد

المعروف بدوي الجبل في بلاد العلويين . فالاستاذ سرديم وبدوي الجبل قصائد لم تجمع حتى الآن في كتاب ولكنها أحلت شاعريها محلاً موفور الكرامة بين شعراء العصر . أما الاستاذ أبو ريشه فله ديوان حافل بأطيب الشعر ، وقد يكون أبو ريشه الأديب السوري الوحيد المتصرف الى الانتاج في هذه الايام ، فهو بعدّ ملحمة بعنوان « الاساطير » تم مقدمتها التي اتصلت بنا على مجموعها . وقد شاء الشاعر ان يفتح ملحمته بمثل ما كان شعراء الملاحم الاغريق والرومان يفتتحون ملاحمهم بمخاطبة ربة الشعر . قال :

لا تلمني يا راويات الزمان ... فهو لولاك موجةٌ في دخان
تتوالى عصورها وبها منك ... ظلالٌ طريّة الالوان
ابداً تبسم الحياة عليها ... بسمة المطمئنّ للحدثان
اتسمعي حفيف اجنحة الاهام ... من افقك القصيّ الداني
وانثري حولي الاساطير ... فالروح على شهية غصة الظمآن
حسبك أن اردّها لك من قلبي صلاةً ومن شفاهي أغاني

وفي سوريا ادباء مهيّأوا التربة لانتاج حسن كالدكتور منير العجلاني في دمشق والاستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة « الحديث » الحلية التي مايرحت منذ سنوات تطلع علينا كل شهر بنماذج طريفة من أدب صاحبها وسائر ادباء العرب

وفي لبنان وهط من حملة الاقلام اكثر انتاجاً وانصرافاً الى الادب من اخوانهم في سوريا على ان المذاهب الغربية مازال تسطو على بعض الادباء اللبنانيين سطواً يفصلهم عن جوهر نفوسهم ، ولكن هذا البعض بدأ يتحرّر من ربقة الغرب ويخلق لنفسه عالماً روحيًّا له طابعه وله تقاليده . وقد ذكرنا من ادباء لبنان اكثر من واحد ، ونذكر الآن الشاعر امين نخله الذي عرف ان يبدع لنفسه سواء في الشعر او النثر رمزية عربية التعبير متزنة التفكير لا يشق الغلو في تفهم اغراضها ومعانيها وصورها . والشاعر الدكتور حبيب ثابت الذي نفض القلم اخيراً من طرته الشعريّة « ادونيس » والشاعر سعيد عقل الذي امتاز برغبته في التسلل الى دياميس اللاوعي ... والاستاذ صلاح لبكي ، شاعر « أرجوحة القمر » الذي يعطف على

القلب البشري بخشوع موجع. والشاعر الياس خليل زخريا صاحب القلم اللازوردي. والشاعر نقولا يوسف الثالث من الشعر في داي. والشاعر ميشال طراد الذي ابدع في الشعر الريفي طريقة هو أقرب فيها الى جامعتان منه الى ميسترال. وعمر الزعني، يراعجه هذا الزمن. والاستاذ بطرس البستاني، صاحب «ادباء العرب» وفي طليعة المنشئين والنقادين. والاستاذ عمر الفاخوري، صاحب «الباب المرصود» الذي يرجع اليه فضل المتقدم في توجيه النقد الفني. والاستاذ فؤاد افرام البستاني صاحب «الروائع» الذي ملك على حداثة سنه ناصية العلم واحتل مكاناً رفيعاً في عالم الادب. والاستاذ مارون عبود، الاديب الحيّار وأحد أئمة النقد الأدبي في هذا العصر. والاستاذ ميخائيل اميه، الأديب الذي وقف من قمم الفكر على واحدة لم يبلغها من نوابغ الشرق إلاّ قرٌ قليل. والاستاذ رئيف خوري الذي ساهم بقسط وافر في الحركة الفكرية الحديثة. والاستاذ لطفي حيدر الذي عرف في قصته «عمر النديم» أن يحفظ التوازن بين التقاليد الشرقية والغربية فلم تقطع صلته شعرة معاوية. والاستاذ توفيق يوسف عواد الذي يحاول مع الاستاذ خليل تقي الدين رفع القصة الى المستوى المنشود. وقد بذل حتى الآن جهداً محموداً في «الصبي الاعرج» و«قميص الصوف» و«عشر قصص». والاستاذ يوسف غصوب، شاعر «الموسجة الملتهبة» وناسج الفصول الجميلة في مختلف نواحي الادب. والدكتور نقولا فياض، الشاعر الخطيب الذي يرجع اليه فضل التقدم في الشعر الوجداني السائد الى يومنا هذا. والاستاذ عيسى اسكندر المعلوف، حجة التاريخ في هذا العصر. والاستاذ انيس المقدسي صاحب المباحث الرصينة في تطور الأدب العربي. والدكتور أسد رستم صاحب المؤلفات التاريخية القيمة. والدكتور قسطنطين زريق الكاتب الاجتماعي الرصين

***

ومعظم هذه الصراصير المذهبة يدندن في جريدة «المكشوف» للشيخ فؤاد حبيش وجريدة «الجمهور» للاستاذ ميشال ابو شهلا الياس أبو شبكة

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

— ١ —

لم تصب الهند كلها بوابل العرب الدافق ، ولا بسهم سلطانهم الخارق ، غير الموجة التي مست سواحلها الغربية ، مثل السند وما جاورها ، حتى لم يضرب فيها ايضاً حكم عربي الى مدة طويلة ، والا لكان مصير الهند من جهة وحدة اللغة والثقافة كمصير مصر ، وإن كان العامل الدائم الآخر لتلك الوحدة في مصر هو قربها من جزيرة العرب واتصالها المباشر بها

على ان سكان الهند الوثنيين مع مناعة السياج الطبيعي حول بلادهم وحمايته — اذ يحدق بهم شمالاً جبال الهملايا وهو أعلى الجبال في العالم قاطبة ، ويحفهم جنوباً وشرقاً وغرباً المحيط الهندي وهو الثالث في اعماقه في العمق والسعة — لم يقدروا ان يحافظوا على سكون بالهم ، وركود خاطرهم من تكدير الدخيل ، وتشويش الغريب . فقد طرق ابوابهم الغازون ، وقهر بلادهم الفاتحون من اليونان ، والسيث[1] والافغان والعرب ، والترك ، والمغول حيناً بعد حين . فلم يكن للهندي الوثني الخارق في تفكيره الفلسفي العميق بدٌّ من ان يتأثر في لغته وثقافته وافكاره وآرائه من احتك بهم . فاليونان ، والسيث ، والعرب ، والترك ، والافغان ، والمغول وغيرهم جميعاً لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الهند في صوغ الفكر الهندي على طابعهم الخاص بعض الصوغ فكما ان الهند تأثرت بتلك القوى الخارجية في عاداتها واطوارها واديانها واخلاقها كذلك تأثرت منها بلغاتها ولهجاتها

ولا يمكنك ان تقشع غمام ذلك الاثر في لغات الهند ولهجاتها ، ولا ان تدرك مبلغه وتستقصي مداه اذا لم تسبر غور ما وصل اليه مجهود الهنود الوثنيين في اجادة لغات هؤلاء الغازين الى بلادهم ، ولم تختبر حال تضلعهم من فنون الآداب فيها

(١) Scythians

حيث اصبحوا خبيرين بقرض الشعر ، بصيرين بمذاهب الكلام ، عارفين بموضع النقد متصرفين في ضروب الانشاء فيها مسدَّدين فيها بالامر ، وموفقين بالمراد

من تلك اللغات اللغة الفارسية التي حملها الافغان والترك والمغول الى الهند فكانت لغة رسمية طيلة مدة حكومتهم فيها . وللفارسية علاقة دانية وقرابة وطيدة الى أسرة اللغات الآرية التي اليها يمت جميع اللغات واللهجات الهندية . لذلك يجوز انه لم يجد الهندي الوثني تعلمها عزيزاً مستطاباً ، ولا الخوض في ادبها شروداً منحاصاً بالقياس الى اللغات الاجنبية الاخرى ، فأطاعته امورها بأيسرها ، وانقادت له مطالبها بازمتها

كان لهؤلاء الهنود مع جيرانهم في الشمال علائق الجوار الحسنة ، وصلات التجارة المتينة من ازمن الغابر الى قبل عهد سبكتكين [1] اي قبل ان تعبر جيوش ابنه السلطان محمود الغزنوي [2] نهر اندس — الحد الفاصل حينئذ بين الهند والدولة الغزنوية — في غاراته الشهيرة على الهند . بيد ان الداعي القوي الذي أهب بهم الى صرف عنايتهم في اتقان لغة هؤلاء الفاتحين النازحين الى بلادهم ، والضاربين فيها بجرانهم ، والذي أجأهم الى بذل وسعهم وطاقتهم لحوز قصب السبق في حلبة آدابها واحراز فوق النضال في ميدان نظمها ونثرها ، كان طمعاً في العهد الاخير . وهو عهد — القرن العاشر الميلادي — نجد فيه العلامة الفيلسوف ابو ريحان البيروني مكبّاً بين ظهرانيهم على دراسة لغتهم وفلسفتهم وعاداتهم واخلاقهم وعلومهم وفنونهم وجامعاً لكتابه الشهير عن الهند ، أوضاعه المحكمة ، واغراضهُ المتشعبة ، ومناهجه السديدة ، وفوائده الكثيرة . وهو ايضاً عهد بدأت فيه الكلمات الفارسية والعربية تدخل اللغات الدارجة في شمال الهند ، اذ نرى الشاعر الهندي الذائع الصيت « شاندكيو » وهو شاعر بلاط الملك « پرثيوي راج » يتسلل في رثائه الشهير لممدوحه الملك كلمة « پرورد كار [1] » و« سلطان »

(١) تولى سبكتكين من سنة ٩٧٦ الى سنة ٩٩٧ ميلادية (٢) تولى السلطان محمود الغزنوي من سنة ٩٩٨ الى سنة ١٠٣٠ ميلادية وأغار على الهند من سنة ١٠٠١ الى سنة ١٠٢٤ ميلادية اثنا عشر مرة الى ان ضم الى حكومته اقليمي البنجاب والكجرات . (٣) ومعناه بالفارسية « الرب »

ولكن مما يؤسف له ان مصادر المعلومات عندنا في هذا البحث من مباحث التاريخ الهندي قليلة . لان علماء اللغة الفارسية سواء أكانوا فارسيين أم الذين تعرعوا في الهند لم يزوها في مصنفاتهم — كما يظهر لنا — جديراً بان يوكلوا بها رعايتهم ، ويوفوا عليها عنايتهم ، ويلقوا ضوءاً على هاته الظاهرة من جد الهنود الوثنيين ونشاطهم . فواله داغستاني مثلاً صاحب الكتاب الشهير « رياض الشعراء » في تراجم شعراء اللغة الفارسية يفتخر باهماله في كتابه ذكر الشعراء الهنود الوثنيين باللغة الفارسية . وعليه فاهمال داغستاني المشرب بالكبرياء ومن حذا حذوه قد جعل جمع المواد لهذا الباب الغامض من تاريخ الفكر الهندي صعب المرام ووعر الملتمس . لذلك فالقرون الاولى من استيلاء المسلمين على الهند لا تقدم لنا مراجع تستحق الاعتبار للبحث

على انهُ في الاخيرين رجحت الاعتبارات السياسية والاجتماعية كفة الموقف لمصلحة هؤلاء الهنود في تعلم اللغة الفارسية واتقانها ، حملوا بصره ، وتكفلوا عنه ، فبرعوا فيها وحذقوها . لذلك نجد في « تاريخ فرشته » انهم في عهد دولة لودية[1] في الهند كانوا كلفين بلغة حكامهم ومشغوفين بدراستها ، فمن ذلك الزمن تاروا عليها كلباً ، واطهروا لها طلباً حتى بلغوا من الاتقان فيها غاية استحقوا بها أعلى المناصب وأرفع المراتب في الدولة فيما بعد . فكان مثلاً لدى اغارة ملك المغول ظهير الدين بابر وابنهُ نصير الدين همايون [2] على الهند ، يتشرف برياسة الوزارة في الدولة الافغانية [3] الآتية الى الاضمحلال حينئذٍ ، هندي وثني مسمى « هيمو بقال »

اختار المغول بعد فتحهم الهند وطناً لهم — وهي ميزة تميز بها الفاتح المسلم الشرقي عن الفاتح المستعمر الغربي . فان الغربي مهما كانت البلاد المفتوحة أغنى ثروة ، وأعذب ماءً ، وأجود هواءً من بلاده ، لا ينقل مركزه منها الى تلك البلاد ، فتدفق ثروتها

(١) دام عهدها في الهند من سنة ٨٥٥ الى سنة ٩٢٣ هجرية

(٢) تولى ظهير الدين بابر الامر من سنة ١٥٢٦ الى ١٥٣٠ ميلادية وأما ابنه نصير الدين همايون فمن ١٥٣٠ الى ١٥٥٦

(٣) دامت هذه الدولة في ناحية من نواحي الهند من سنة ١٥٣٩ الى ١٥٥٤ حتى استولى عليها المغول

الى الخارج ، فيستحيل ظلها الذي التصق فيه الحقض حروراً ، وماؤها الذي اطرد فيه النعيم مهلاً ، وجوها الذي انبلج فيه الأنس وحشة فيبدو أهاليها من البؤس والفقر بؤساً ، تتفجر في وجوههم الاهوال ، وتغبر في عيونهم الآمال ، لا شريك من اوليائهم في عواطفهم ، ولا حليف من ساداتهم في مصائبهم ، ولا نصير من حكامهم في حاجاتهم ، ولا مغيث من ولاتهم في استغاثتهم — لذلك لا يسهم المغول بحكم إخوة الوطن الواحد ، وماذجوا ، وزاوجوا ، وعاشروهم بحسني الشمل ومتصلي الحبل ، مصيخين لكل أنة العاني ، ومصغين الى كل نشجة الباكي ، ومغيثين لكل لهفة المستغيث ، فبلغوا به في قلوبهم منزلة لا تساوى ورتبة لا تدانى

بهذا التمازج والخلطة والمعاملة الحسنة أغرى المغول الهنود الوثنيين ، وأوقدوا في قلوبهم نار الشوق الى التمكن من اللغة الفارسية والتضلع من علومها وفنونها ، أضف الى ذلك ما زاد نزوعهم اليه وهو المشابهة والمماثلة بين افكار التصوف الاسلامي بالفارسية وبين أفكار ويدنتا[1] بالسنسكريتية . فكان أكبر مظهر أشرق بهاؤه ، ولاح علاؤه لهذا التمازج بين الحاكم والمحكوم في عهد العاهل العظيم جلال الدين أكبر [2] اذ اصبح الادب الفارسي العربي الذي حمله المسلمون الى الهند في هذا العصر الذهبي مصدراً عاماً لاطلام الجميع . ولقد بلغ تقريب الهنود الوثنيين في هذا العهد الزاهر للثقافة الاسلامية مبلغاً حملهم على تعلم العلوم الاسلامية الشرعية واجادة اللغة الفارسية والعربية ، وايضاً على بناء المساجد للمسلمين كما بناها لهم « راجا بهكوان داس » وابنه الشهير « راجا مان سنغ »

لم يكن تشجيع الملك العظيم جلال الدين أكبر وعونه للادباء في بلاطه مقصورين على المسلمين ، فقد ترجم بأمره العلماء الهنود البراهمة البارعون في ادب السنسكريتية وعلومها مع اشتراك العالم المسلم المؤرخ الشهير عبد القادر البداوني كتباً نفيسة من اللغة السنسكريتية وادبها الى اللغة الفارسية مثل « سنكهاسن بتيسي » و« رامايانا » « ومهابهارت » فاصبحوا بهذا على اتصال بعلماء اللغة الفارسية المسلمين في بلاط

(١) اسم كتاب مقدس عند الهنود الوثنيين (٢) أكبر ملوك المغول في الهند تولى الامر من سنة ١٥٥٦ الى ١٦٠٦ ميلادية

الملك وأسلم بعضهم على أثره مثل « بهون » . فشاعر بلاط الملك « فيضي » وشقيقهُ الوزير الشهير والعالم الجليل « ابو الفضل » صاحب الكتابين القيمين « أكبر نامه » « وآئين اكبري » كانا هنديي الاصل . « وفيضي » هذا مع كونه شاعراً مطبوعاً باللغة الفارسية اذ له فيها ديوان عظيم معترف به من الادباء والشعراء ، كان عالماً محرراً باللغة السنسكريتية فان القصة « نالا دامايانتي » التي كتبها نظماً باللغة الفارسية تدل على استقائه اياها من المصادر السنسكريتية وطول باعه فيها ، وكذلك كان اديباً متفنناً باللغة العربية فان تفسير القرآن الكريم الذي صنفهُ بالعربية بالحروف النير المنقوطة وسماه « سواطع الالهام » يشهد على براعته وقدرته فيها

***

وعليه فلا شك فيه انهُ في مثل هذه الاحوال الموفقة في بلاط الملك برع الامراء الهنود الوثنيون في لغة البلاط الفارسية شعراء وكتاباً . فالملك نور الدين جهانكير [1] ينوه في مذكراته « تزك جهانكيري » بامير راجبوتي [2] وثني سمى « راجا منوهرداس » الذي كان محبوباً عند والده الملك جلال الدين اكبر لعلمه الغزير واطلاعه الواسع باللغة الفارسية . فهو يجمل ذكره ، وينشر مناقبهُ مظهراً تقديره الكامل لبراعة هذا الامير في الشعر الفارسي مستشهداً لرأيه فيه بالشواهد الكثيرة من شعره . ولم يرفع هذا التقدير الملكي والعطف السامي « راجا منوهرداس » الى الصف الأول من العلماء الهنود الوثنيين الذين ساهموا في ارتقاء الأدب الفارسي وتقدمه في الهند بل ما أحرزه من الأعتراف والتقدير من علماء ايران وادبائها وشعرائها بأنفسهم كالعالم الاديب والشاعر المطبوع بالفارسية لذلك ارتفع بشعره الصوت وسار في البلاد الى ما وراء الحدود الهندية فتداوله الناس بالذكر الجميل ونال اعجابهم حيث ادرج الشاعر الفارسي الكبير اقداتع الصيت

(١) تولى الامر من سنة ١٦٠٦ الى ١٦٢٨ ميلادية (٢) نسبة الى قبيلة « راجبوت » في الهند وهي من قبائل الهنود الوثنيين الشهيرة

« صائب » بعض اياته في مجموعة المختارة من الشعراء المختلفين ، وهو عزة درت اليها حينئذٍ الابصار وطمحت اليها القلوب . وكان شعره رائق الاسلوب يتدفق طبعاً وسلاسة مشبعاً بالافكار الصوفية الرقيقة واليك ترجمة بعض الايات المختارة منهُ قال : —

ينبغي لك ان تعلم الانفراد والاتحاد من عينيك
فانهُ وان كانت كلٌّ منهما منفردة ولكنهما لا تظران الاَّ بالاتحاد

وقال أيضاً : إن الشيخ يطمئن الى إيمانه ، والبرهمي يفتخر بكفره
ولكن سكران جمال الحبيب لا يباني بالايمان ولا بالكفر

ومن شعر الصوفي ما يلي ترجمته : —

يا ربي اشرح صدري بالحب
واعطني قلباً كنز الأسرار
واطبع قلبي بالحب الخالد
واجعل شعار حبك روحي
أنا أسألك يا ربي فضلك العام
فان القنوط منك حرام
إن أذنت بان اروي غلتي من بحر وحدتك
فذلك لا ينقص شيئاً منهُ
اعطني النطق لحمدك
والقوة للمشي في سبيلك
أنا لا أعرف يا ربي ! ما هو الايمان والكفر ؟
ولا الواقع في شركك هذا أو ذاك
فان كنتُ كافراً فاعطني الايمان
اعطني اليقين يا ربي فاني أطلبهُ منك

(يتبع) السيد ابو النصر أحمد الحسيني الهندي